﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في القيامة توبيخ لوهم الإهمال، وفي الإنسان تقرير لمبدأ الكمال

لمّا خُتمت سورة القيامة بسؤال إنكاريٍّ يوبّخ الإنسان على ظنّه أنه سَيُترك هملًا لا يُؤمر ولا يُنهى؛ جاء مطلع سورة الإنسان ردًّا عمليًّا عن هذا الظَّنِّ الفاسد؛ فابتدأت بتذكير الإنسان بأصله الحقير، ومبدئه الضئيل، وتقرير خلقه على عِلم، وتسويته على قصد، وتكريمه بالسَّمع والبصر، ثمَّ ابتلائه ليُجازى، فجاءت آياتها تثبيتًا لحقيقة أنَّ الإنسان لم يُخلق عبثًا، بل لحكمة وابتلاء، وهداية وجزاء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِينٞ﴾: أصل (حين) يدلُّ على الزَّمان[2]. الحين: الوقتُ مِن الزَّمان[3]، ووقتُ بلوغ الشَّيء وحصوله، وهو مبهم المعنى، ويتخصَّص بالمضاف إليه[4] ويُجمع على الأحيان[5] والحَين عُبِّر به عن الموت والهلاك، يقال حان الرَّجل يحين حَيْنا؛ أي: هلك. وأحانه اللّه[6]. وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾؛ قيل: معناه ساعة، وقيل: أربعون سنة[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 741، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 124، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 159.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (حين).
(4) الرّاغب، المفردات: (حين).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حين).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (حين).
(7) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (حين).

2) ﴿ٱلدَّهۡرِ﴾: أصل (دهر) يدلُّ على الغلبة والقهر[1]. الدَّهْر: الزَّمان، ويجمع على دهور[2]. والدَّهْر في الأصل: اسم لمدَّة العالَم مِن مبدأ وجوده إلى انقضائه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾. ويعبَّر بالدَّهر عن كلِّ مدَّة كثيرة، وهو خلاف الزَّمان؛ فإنَّ الزَّمان يقع على المدَّة القليلة والكثيرة[3]. ودَهْرُ الإنسان: مدَّة حياته[4]. ويقال: الدَّهر: الأبد المحدود[5].

3) ﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أصل (مشج) يدلُّ على الخلط[6]. مشجتُ بينهما مَشجًا: خلطْتُ، والشَّيء مشيج، والجمع أمشاج، والأمشاج؛ أي: أخلاط مِن ماء الرَّجل، وماء المرأة، والدَّم، والعَلَقة، وذلك عبارة عمّا جعله الله تعالى بالنُّطفة مِن القوى المختلفة[7] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾؛ أي: أخلاط؛ لأنَّه خُلِقَ من ماء الرَّجل والمرأة جميعًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قـدرة الله على خلـق وهـدايـة الإنـسـان تستوجب الشُّكْرَ الدّائم والامتنان

افتُتِحَت الآية الأولى من هذه السّورة الكريمة بأسلوب الاستفهام المفيد للتَّقرير الموجَّه لعموم بني آدم؛ للإخبار بحقيقة أصل الإنسان وهو آدم ﷺ الذي مضى عليه وقت طويل من الزَّمن قبل أن تُنفَخَ فيه الرّوحُ لم يكن شيئًا يُذكر أو يُعرف له أثر، وجاءت الآيةُ الثّانيةُ لبيان مظهر من مظاهر قدرة الله الَّتي تتجلَّى في خلق ولدِ آدَمَ من ماءٍ قليلٍ مختلطٍ بعضُه ببعضٍ، وهو ماءُ الرَّجل والمرأة، وفي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دهر).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح: (دهر).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (دهر).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (دهر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح: (دهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مشج).
(7) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (مشج).
(8) السّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (مشج).

جعله أيضًا ذا سمع وبصر ليكون مؤهلًا للتَّكاليف الشَّرعية فيما بعد؛ فيسمعَ الآيات البيِّنات ويبصرَ الدَّلائل الواضحات للتَّعرُّف على خالق الأرض والسَّماوات، ثم بيَّن له سبحانه طريق الهداية والغواية؛ ليكون هذا الإنسان إمّا مؤمنًا سعيدًا، وإمّا كافرًا شقيًّا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعة استهلال السّورة بأسلوب الاستفهام، وبيان نوعه وغرضه:

استفهام تقريريٌّ؛ لإيقاظ الأفهام، وقمع ما يعتريها مِن أوهام

﴿هَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ للتقرير بمعنى (قد)[2]، والمعنى: قد أتى على الإنسان. سدَّت ﴿هَلۡ﴾ مسدَّ الهمزة ودلَّت على معناها ومعنى الهمزة معًا، ثمَّ صارت حقيقةً في ذلك، فهي للتَّقرير والتَّقريب؛ أي: تقريب الماضي مِن الحال؛ أي: أقَدْ أتى على الإنسان قبل زمانٍ قريبٍ حينٌ مِن الدَّهر لم يكن كذا؟ فإنَّه يكون الجواب: نعم. أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور[3] وجملة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ تمهيدٌ وتوطئة للجملة التي بعدها وهي ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾[4].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿أَتَىٰ﴾ مادة وصيغة:

التَّعبير بالإتيان للتَّذكير بما كان؛ والتَّنبيه إلى عظيم الامتنان

يفيد التَّعبير بالماضي الدَّلالةَ على التَّحقق، وذلك مِن حيث الدَّلالة على شيء قد مضى وانقضى، وفي ذلك نوع توكيد، وهو يزيد مِن معنى التَّقرير الذي في ﴿هَلۡ﴾.

أمّا عن سرِّ التَّعبير بالإتيان دون المجيء فإنَّ الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارِّ على وجهه: أتيٌّ وأتاويٌّ[5] والمجيء كالإتيان، لكنَّ

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 289 - 292، ومجمع الملك فهد، التَّفسير الميسَّر، ص: 1/ 578.
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 5/ 189، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 739، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 118.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 358.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 371.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديُّ، بصائر ذوي التمييز: (أتى).

المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال (جاء) في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولَمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝١﴾ [الفرقان: 4]؛ أي: قصدوا الكلام وتعمَّدوه، فاستُعمل فيه المجيء كما استُعمِل فيه القصد[1] فممّا سبق يتبيَّن أن المجيء فيه معنى القصد، والحصول، والظُّهور، وفيه كذلك معنى الانحدار إلى حيِّز أو تجوُّف سفليٍّ مهيَّأ جامع؛ كالماء في الهبطة والحُفرة[2].

وقد أوثر التَّعبير بـ﴿أَتَىٰ﴾ دون (جاء) في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾؛ لما في التَّعبير بالإتيان مِن الدَّلالة على المجيء بسهولة، وهو مناسب للحين الذي أتى على الإنسان في الزَّمن البعيد لم يكن فيه الإنسان شيئًا مذكورًا.

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالتها:

الأصل في معنى ﴿عَلَى﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي مِن العُلوّ[3]. وهي في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾؛ للاستعلاء المجازيّ؛ فكأنَّ الزَّمن مرَّ مستعليًا على الإنسان، وسجَّل عليه، ممّا يُظهر الإنسان وكأنَّه كان في قبضة الزَّمن مطويًّا منسيًّا.

لـولا امـتـنـان الـرَّحـمـن لـدام اسـتـعـلاء الـزَّمـان، ولبقي الإنـسـان طـيَّ النِّسيان

معنى اللّام ودلالتها في ﴿ٱلْإِنسَـٰنِ﴾:

يجوز أن تكون اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ للجنس المفيد للاستغراق[4] أي: إذا تأمَّل كلُّ إنسان في نفسه علِم أنَّه قد مرَّ حينٌ

كـان كـلُّ إنسان عـدَمـا، فـوضع الله له في الدُّنيا قَدَما

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديُّ، بصائر ذوي التمييز: (جاء).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جاء).
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 358، والمحلّيُّ والسُّيوطيُّ، تفسير الجلالين، ص: 781، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

مِن الدَّهر عظيمٌ لمْ يكن هو فيه شيئًا مذكورًا؛ أي: لم يكن موجودًا[1] ويجوز أن تكون اللّام للعهد، فيكون التَّعريف في ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ مرادًا به معيَّنًا معهودًا، وهو آدمُ عليه السلام[2].

الغرض مِن تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل:

التقديم للاهتمام، وتحديد المنوط بالكلام

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ على الفاعل ﴿حِينٞ﴾؛ لإفادة الاهتمام بشأن المُقدَّم، والتَّشويق للمتأخِّر، ولينبني ما بعده ممّا سيرد في السّورة عليه، فالخطاب في السّورة قد خُصَّ به الإنسان على وجه التَّحديد، ومِن ثَمَّ سُمِّيت السّورة بـ(الإنسان).

الغرض مِن تنكير الفاعل ﴿حِينٞ﴾:

الحين مدَّة مطلقة مِن الزَّمان، مرَّت وليس في الكون إنسان

جاءت ﴿حِينٞ﴾ نكرةً؛ لقصد عدم التَّعيين؛ فالحين في اللُّغة يُطلَق على مدَّة مِن الزَّمان طالت أم قصرت[3]، والآية لم تحدِّد زمنًا معيَّنًا أو محدَّدًا؛ فالمقصود هو جزء مطلَق مِن أجزاء الزَّمان؛ ولذلك اختلف في تأويله المفسِّرون[4]. فالحين: هو طائفة مِن الزَّمان مبهمة الحدِّ في علمنا وإن كانت محدودة في نفسها[5]. وقد يكون التَّنكير؛ لإفادة التَّكثير[6]؛ أي: "قد مرَّ دهر طويل لا إنسان فيه"[7].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾:

قد مرَّ جزء مِن الزَّمان على الإنسان مرورا، لم يكن فيه شيئًا مذكورا

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[8]. وكونه للتَّبعيض في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ لا يُخرِجه عن معنى

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 408، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 167، والزُّحيليُّ، المنير: 29/ 279.
(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 6 - 7، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 408، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 167، والصّاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 258.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 162.
(5) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 429.
(6) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.
(7) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 589.
(8) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.

الابتداء، حيث جعل الدَّهر - وهو الزَّمان الممتدُّ - مبتدَأ هذا الحين الذي صار بهذا المعنى جزءًا منه، فيفهم مِنه معنى التَّبعيض. وحاصل المعنى أنَّه قد: مرَّ على الإنسان "طائفةٌ محدودةٌ كائنةٌ مِن الزَّمان الممتدِّ لم يكن فيها شيئًا مذكورًا"[1].

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلدَّهۡرِ﴾:

التَّعريف للإعلام، واستغراق اللَّيالي والأيام

اللّام في قوله: ﴿ٱلدَّهۡرِ﴾ هي لام استغراق الجنس؛ فهي تشير إلى الزَّمان الممتدِّ غير المحدود، الذي يشمل العصور كلَّها، ويقع على مدَّة العالَم جميعِها؛ فالتَّعريف للإعلام، واستغراق اللَّيالي والأيام[2].

موقع جملة ﴿لَمۡ يَكُن﴾ ممّا قبلها ودلالته:

أوجد الله الإنسانَ بعد عدم، وهداه وعلَّمه بالقلم

في موقع قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ ممّا قبله وجهان:

أحدهما: أن تكون الجملة نعتًا لـ﴿حِينٞ﴾ بتقديرِ ضميرٍ رابطٍ بمحذوفٍ لدلالة لفظ ﴿حِينٞ﴾ على أنَّ العائد مجرور بحرف الظَّرفيَّة حُذِف مع جارِّه كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]؛ إذ التَّقدير: لا تجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئًا، فالتَّقدير هنا: لم يكن فيه الإنسانُ شيئًا مذكورًا؛ أي: كان معدومًا في زمنٍ سبَق، وسر تقييد ﴿حِينٞ﴾ بجملة النعت، أن الزمن نفسه لم يكن مخلوقا ولاموجودا، وهذا يعمق معنى تفاهة الإنسان الذي ينكر البعث والحساب.

والآخَر: أن تكون الجملة حالًا مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، وحُذِف العائدُ كحذفه في تقدير النَّعت. كأنَّه قيل: غير مذكور[3] وسر تقييد الإنسان بالجملة الحالية توبيخ الإنسان المنكر للبعث بتذكيره بتلك المرحلة التي لم يكن فيها شيئا.

(1) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 478.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 167، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 371، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 279.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 358، والسّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 591، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

دلالة النَّفي بـ﴿لَمْ﴾:

نـفـيٌ لما مضى، وتأكيد لما قـدَّر الباري وقضى

أوثر النَّفي بـ﴿لَمْ﴾ في ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾؛ للدَّلالة على انعدامٍ تامٍّ في الزَّمن الماضي، فهو قبل الخلق لم يكن موجودًا، ولم يكن له قدر أو شأن يُذكر، ثمَّ انقطع هذا العَدَم، وجعل الله سبحانه له وجودًا وذِكرًا؛ لعلَّة العبادة.

دلالة التَّعبير بالكون المنفيّ ﴿يَكُن﴾:

نـفـي الكينونة لتصوير العدم قـبـل نـعـمـة الإيجاد؛ إظهارًا لفضل الله على العباد

جاء التَّعبير بالكون المنفيّ ﴿يَكُن﴾؛ لتحقيق النَّفي التّام في الزَّمن الماضي[1]؛ ليدلَّ على أنَّ الإنسان في ذلك الحين مِن الدَّهر ما وُجِد أصلًا، بل كان عدَمًا محضًا لا ذكر له، لا في الوجود الحسيّ، ولا في الذِّكر الاجتماعيّ أو التّاريخيّ، وهذا النَّفي التّام للوجود والذِّكر يمهِّد لما بعده مِن الآيات التي تبرز تكريم الله للإنسان وخلقه وتسويته وهدايته. وكأنَّ المعنى: تأمّل كيف كنت عدَمًا لا يُذكر، ثمَّ أصبحت مخلوقًا كريمًا مهديًّا. وهذا مِن أبلغ أساليب الامتنان والتَّذكير بالفضل الإلهيّ، ولو انصبَّ النَّفي على الفعل دون الكون فجاء (لم يُذكر) لربَّما تُوُهِّم منه أنَّ له وجودًا غير أنَّه لم يُذكر، أمّا نفي الكون فيعني العدم، وهذا أبلغ؛ فمِن ثمَّ أوثر بالذِّكر.

الغرض مِن تنكير خبر يكن ﴿شَيْئًا﴾:

في النَّكرة تذكير بـالـنِّـسـيـان، وتحقير لما مضى وكان

جاءت كلمة ﴿شَيْئًا﴾ نكرةً في سياق النَّفي؛ وهي تفيد شيئين:

أحدُهما: الإطلاق والعموم. والمعنى: قد أتى على جنس الإنسان زمنٌ كان فيه منسيًّا غير موجود أصلًا، فلم يكن آدم وبنوه شيئًا مطلقًا، معروفًا ولا مخلوقًا ولا مذكورًا لأحد مِن الخليقة المتقدّمين عليه، وهم الملائكةُ والجنُّ. وهذا إخبار بكون الإنسان في بدء الخلق معدومًا غير مخلوق[2]. والآخَر: التَّحقير والتَّهوين. والمعنى: أنَّ

(1) فاضل السّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 1/ 226.
(2) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 279.

الإنسان لم يكن في بدايته شيئًا يُعتدُّ به أو يُلتفت إليه، فلم يكن له شأنٌ يُذكر، ولا وجود يُعتنى به، والمعنيان متعاضدان لا متناقضان، فيمكن الجمع بينهما بأن يقال: لم يكن الإنسان - قبل أن يُخلَق - شيئًا يُعتدُّ به، بل لم يكن شيئًا أصلًا.

سرُّ التَّقييد بالوصف ﴿مَّذۡكُورًا﴾:

قوله تعالى: ﴿مَّذۡكُورًا﴾ اسم مفعول مِن الفعل (ذُكِر)[1] وهذا تعميق لكونه كان عدما، "والمعدوم لا يُذكَر؛ لأنَّه لا تعيُّن له، فلا يُذكَر إلّا بعنوانه العامّ"[2]. فالمعنى: قد مضت أزمنةٌ وما كان الإنسان شيئًا، ولا مخلوقًا، ولا مذكورًا لأحدٍ مِن الخليقة! أو: كان شيئًا ولم يكن مذكورًا، فيكون النَّفي متوجّهًا إلى القيد[3].

مِن سُبات العَدَم إلى مقامات الذِّكر والكرَم

دلالة التَّعبير بالاستئناف ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مترتّب على التَّقرير الذي دلَّ عليه ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ لِما فيه مِن التَّشويق، والتَّقريرُ يقتضي الإقرار بذلك لا محالة؛ لأنَّه معلوم بالضَّرورة؛ فالسّامع يتشوَّف لما يرد بعد هذا التَّقرير، فقيل له: إنَّ الله خلقه بعد أن كان معدومًا فأوجد نطفةً كانت معدومة ثمَّ استخرج منها إنسانًا، فثبت تعلُّق الخلق بالإنسان بعد عدمه[4].

مِن نُطفَة مَذِرَة، خُلِق الإنسان ذو النُّطق والفكرة، فجلَّ الله ذو القُدرة

الغرض مِن توكيد الأسلوب الخبري بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة:

جاء الأسلوب الخبري في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا﴾ مُؤكَّدًا بـ(إنَّ) وبالجملة الاسميَّة؛ وهذا لتنزيل المشركين منزلةَ مَن يُنكر أنَّ الله خلقَ الإنسانَ لعدم جريهم على موجب العِلم حيثُ عبدوا أصنامًا لم

توكيد الخلق لردّ إنكار المعرضين، ودفع أوهام المشكّكين

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ، والفيروزآباديُّ، بصائر ذوي التمييز: (ذكر).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 371.
(3) صدِّيق خان، فتح البيان: 14/ 456، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 478.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

يخلقوهم[1] ويُمهِّد التَّوكيد كذلك لقضيَّة أنَّ الإنسان لم يُخلق عبثًا، بل خُلق للعبادة والابتلاء والاختبار.

الغرض مِن التَّعبير باسم إنَّ ضميرًا دالًّا على التَّعظيم، وتقديمه:

جاء التَّعبير بضمير التَّعظيم ﴿إِنَّا﴾؛ لأنَّ السِّياق سياقُ بيان مظهر مِن مظاهر عظمة الخالق سبحانه إذ خلق الإنسان - ذلك السَّميع البصير المبين - مِن نطفة مَذِرَة. ولمّا كان هذا الفعل عظيمًا كان مَن قدَر عليه عظيمًا جليلًا، فلا جرم عبَّر بضمير العَظَمَة.

كُرِّر الإسناد لردِّ الإنكار، وحمل المعرض على الإقرار

وأمّا تقديم هذا الضَّمير على الخبر الذي هو جملة فعليَّة فلإفادة القصر، ذلك أنَّ الفعل فيه (وهو ﴿خَلَقْنَا﴾) قد أُسند مرَّتين: مرَّة إلى المسند إليه (الضَّمير المتَّصل بالنّاسخ في ﴿إِنَّا﴾)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به (الذي هو (نا) في ﴿خَلَقْنَا﴾) العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[2].

دلالة التَّعبير بالماضي، والغرض مِن إسناد الفعل إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم:

خُلِق الإنسان مِن ماء، وأوجِد للعبادة والابتلاء

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ ماضيًا؛ لإفادة التَّحقُّق والوقوع؛ أي: أنَّ الخلق قد وقع قطعًا دون شكٍّ مِن نطفة أمشاج، ودليلُه أنَّ هذه النُّطف صاروا بشرًا مخاطَبين بهذه الآيات، ولا يُخاطَب معدوم!، وجيء بالضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم؛ لإبراز عظمة الله في الخلْق، وجلال فعله، وسموِّ حكمته، ولتمهيد النَّفس لتقبُّل ما سيأتي مِن ابتلاء وتكليف وجزاء.

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ والغرض مِنَ الإظهار:

التَّذكير بأصل التَّركيب

اللّام في ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لاستغراق الجنس[3]؛ أي: كلُّ نوع إنسان[4]؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 408، وابن جزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 436، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

وذلك للإشارة إلى أنَّ أصل البشريَّة مِن ﴿نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾. وأمّا الإظهار فلزيادة التَّقرير[1]، والتَّأسيس لفكرة الابتلاء والتَّكليف لجميع البشر.

بلاغة الإدماج في الآية:

عِـلْـمُ الإنسـان بنشأته ومبتداه يُخضِعُه لخالِقِه ومولاه

لمّا حَمل قولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ الإنسانَ على أن يُقِرَّ بأنَّه وُجِد بعد عدم، وأنَّ ذلك لم يكن عبثًا، بل لغايةٍ هي التَّكليف والعبادة - لمّا كان ذلك كذلك، حسُنَ أن تدمج الآيات في هذا التَّقرير بيانًا بكيفيَّة خلق الإنسان من نطفة التَّناسل لما في تلك الكيفيَّة من دقائق العِلم الإلهيّ والقُدرة والحِكمة[2]، فيعلم الإنسان أصلَه، ويدرك عظمَة خالقه، فيُذعن ويخضع.

معنى ﴿مِن﴾، والتَّنكير، ودلالتهما:

النُّـطـفـة مبتدأ الإنشاء، وآية في الزجر والارعواء

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾؛ للابتداء إذ المعنى أنَّ مبتدأ خلق الإنسان هو تلك النُّطفة المحقَّرَة؛ بيانًا لعظمة الخالق سبحانه وبديع صنعته، وأمّا التَّنكير فللنَّوعيَّة والتَّحقير، فالنُّطفة المذكورة هي نطفة المنيّ، وهي قليلة محقَّرة، ومع ذلك خلق الله منها بشرًا فجعله نسبًا وصهرا، وكان ربُّك قديرًا!.

سرُّ وصف النُّطفة بالأمشاج، ودلالة وصف المفرد بالجمع:

نـطـفـة أمـشـاج صـارت إنسانًا، أعـظِـم بـه على الحقّ برهانا

وصِفت النُّطفة بالأمشاج للدَّلالة على الاختلاط الدَّقيق والمتقَن لمكوِّنات أصل الإنسان. و﴿أَمۡشَاجٖ﴾ صفة لـ﴿نُّطۡفَةٍ﴾، ووصفت بالجمع وهي مفردة؛ لأنَّ المراد بها مجموع ماء الرَّجل والمرأة، والجمع قد يقال على ما فوق الواحد، أو باعتبار الأجزاء المختلفة فيهما: رقَّة وغلظًا، وصُفرةً وبياضًا، وطبيعةً، وقوَّةً وضعفًا، حتَّى اختصَّ بعضها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 70، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 193.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 373.

ببعض الأعضاء على ما أراده الله تعالى بحكمته؛ فخلقه بقدرته. والحاصل أنَّه نُزِّل الموصوف منزلةَ الجمع، ووصف بصفة أجزائه[1].

موقع جملة ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ ودلالته، ودلالة التَّعبير بالمضارع:

قوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ يجوزُ فيه وجهان:

لفظٌ وجيز يجلّي عبْءَ التَّمييز

أحدُهما: أنَّها حالٌ مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: خَلَقْنا حالَ كونِنا مُبْتَلين له، وفيه دلالة على الجلال والقدرة. والآخَر: أنَّها حالٌ مِن ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، وفيه دلالة على قيد الإنسان بالابتلاء، وهذا هو شأنه، وصَحَّ ذلك؛ لأنَّ في الجملة ضميرَيْن كلٌّ منهما يعودُ على ذي الحال. ثمَّ هذه الحالُ يجوزُ أن تكون مقارِنةً إنْ كان المراد بـ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نُصَرِّفُه في بطنِ أُمِّه نُطفةً ثمَّ علَقةً، وأنْ تكونَ مقدَّرةً إنْ كان المراد بـ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نَخْتَبره بالتَّكليف؛ لأنَّه وقتَ خَلْقِه غيرُ مكلَّف. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: ناقلين له مِن حالٍ إلى حالٍ، فسُمِّي ذلك ابتلاءً على طريق الاستعارة[2].

وقد وقعت هذه الحالُ بينَ جملة ﴿خَلَقْنَا﴾ وبين ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّ الابتلاء؛ أي: التَّكليف الذي يظهر به امتثالُه أو عصيانُه، إنَّما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير، فكان مقتضى الظَّاهر أن يقع ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بعد جملة ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولكنَّه قُدِّم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السَّعادة والشَّقاوة، وجيء بجملة ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيانًا لجملة ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ تفنُّنًا في نظم الكلام[3] وجيء بالفعل ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ مضارعًا؛ ليدلَّ على أنَّ الابتلاء ممتدٌّ ومستمرٌّ مع الإنسان ما دامَت فيه روحُه، فليس الابتلاء مقصورًا على لحظة خلقه.

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 5/ 189، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 666، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 168.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 594، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 374 - 375، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 480.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 374 - 375.

معنى الفاء ودلالاتها في ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾:

"الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ للتَّفريع؛ حيث فرَّع على خلْقِه مِن نُطْفة أنَّه جعله سميعًا بصيرًا، وذلك إشارة إلى ما خلَقه الله له مِن الحواسِّ التي كانت أصلَ تفكيره وتدبيره"[1].

دلالة التَّعبير بالماضي، وإسناد الفعل للضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم:

قضى الله في سابق حُكمه ما يكون، ولكنَّ الكافر بالإعراض مفتون

التَّعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ يفيد التَّحقُّق، ويدلُّ على أنَّ الله تعالى قضى في سابق حكمه أن يخلق الإنسانَ مزيَّنًا بنعمتَي السَّمع والبصر؛ لتعيناه على التَّأمل والنَّظر، ومِن ثمَّ يتأهَّل للتَّكليف المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، وأمّا الإسناد للضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم؛ فهو لبيان الله عظمَة الله في خلقه؛ حيث خلق الإنسان في أحسن صورة وأروع مثال: سميعًا بصيرًا، عاقلًا مبينًا.

توجيه مرجع الضمير الهاء في ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ ودلالته:

مرجع الضَّمير إلى الإنسان؛ لبيان مواطن الامتنان

الهاء مِن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ تعود إلى الإنسان المذكور قبلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: فجعلنا الإنسانَ ذا سمعٍ يسمعُ به، وذا بصَرٍ يُبصِرُ به؛ إنعامًا مِن الله على عباده بذلك، ورأفةً منه بهم، وحجَّة له عليهم[2].

دلالة التَّعبير بالمفعول به الثّاني منَكَّرًا ﴿سَمِيعًا﴾:

تنكير للتَّعظيم، وإبراز ما فيها مِن صوَر النَّعيم

أوثر تنكير قوله تعالى: ﴿سَمِيعًا﴾ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم؛ أي: جعلناه سميعًا عظيم السَّمع[3]، بصيرًا عظيمَ البصر؛ أي: السَّمع العاقل، والبصر المتأمِّل، والفِكر المتدبِّر، ففي هذا تعظيمٌ لهاتين النِّعمتَيْن اللَّتيْن امتنَّ الله بهما على بني آدم؛ إذ المقصود بهما الاعتبار والتَّفكُّر اللَّذان انبنى عليهما التَّكليف، كما أنَّ هذا التَّنكير

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 537، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 480.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 130.

أُريد به التَّعميم، وعدم حصر السَّمع في مسموعات بعينها، فكأنَّه قيل: سميع يسمع كلَّ المسموعات إلّا ما استثني.

سرُّ إتْباع المفعول الثّاني ﴿سَمِيعًا﴾ بالوصف ﴿بَصِيرًا﴾:

أُتبع وصفُ السَّمع بالبصر؛ للدِّلالة على الاقتران التّامّ بين الحاسَّتين، وأنَّهما ضروريَّتان للاختبار؛ فهما أداتا الإدراك، وبهما يتميَّز الإنسان عن غيره.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة في الوصف في قوله تعالى: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾:

المبالغة لإبراز تمام الامتنان، ولبيان عظم الامتحان

جاء وصف الإنسان بالسَّميع البصير بصيغة المبالغة، ولم يُقَل: فجعلناه سامعًا مبصرًا؛ لأنَّ سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلًا وتمييزًا في المسموعات والمبصَرات مِن سَمعِ الحيوان وبصره؛ فبالسَّمع يتلقَّى الشَّرائع ودعوة الرُّسل، وبالبصر ينظر في أدلَّة وجود اللّٰه وبديع صنعه[1]، وفيه إشارة إلى أنَّ سمع الإنسان وبصرَه ليس كسمع الحيوان وبصرِه، وإنَّما هو سمعٌ يحوِّل المسموعات إلى حقائقَ ومعانٍ، تَنفُذ إلى أعماق المسموع، وإلى ما وراء دلالات الصَّوت الذي يقع على الأذن مِن كلِّ ما يطرقها مِن مسموعات، سواءً كان كلمات، أو غير كلمات، وكذلك الشَّأن في البصر، فهو ليس بصرًا ينقل الأشياء إلى العين، كما تنقلها المصوَّرة، وإنَّما هو بصرٌ يدخل إلى دائرة العقل الذي يكشف عن الحقائق المضمَرة في كيان الشَّيء المبصَر[2]. وهذا تخلُّص إلى ما ميَّز اللّٰه به الإنسان مِن جَعْلِه تُجاه التَّكليف واتِّباع الشَّرائع، وتلك خصيصة الإنسان التي بها ارتكزت مدنيَّته، وانتظمت جامعاته؛ ولذلك أعقبت هذه الجملة بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 15/ 1353.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.

سرُّ اختيار السَّمع والبصر دون سائر الحواسِّ:

السَّمع والبصر طريقا الإدراك والنَّظر

جيء بحاستي السَّمع والبصر دون سائر الحواسِّ في قوله: ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّهما أعظم الحواسِّ وأشرفها، وأنفعها للإنسان؛ "إذ عن طريق السَّمع يتلقَّى دعوة الحقِّ وما اشتملت عليه مِن هدايات، وعن طريق البصر ينظر في الأدلَّة المتنوِّعة الكثيرة التي تدلُّ على وحدانيَّة اللّٰه تعالى وعلى صدق أنبيائه فيما جاؤوا به من عند ربِّهم"[1].

دلالة الاستئناف في ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾:

استئناف لبيان التَّفضُّل بنعمة الهداية، بعد الامتنان بخلق وسائل الدِّراية

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لبيان حال الإنسان بعد أن أُعطي أدوات الإدراك (السَّمع والبصر) وتخلُّصٌ إلى الوعيد على الكُفر والوعد على الشُّكر[2]، وكأنَّ السّامع يسأل: فماذا بعد أنْ جعله سميعًا بصيرًا[3] فجاء الجواب استئنافًا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: بيَّنّا له طريقَ الخير وطريقَ الشرّ؛ ممّا يُلقي مسؤوليَّة الاختيار على الإنسان بعد أن مُكِّن مِن أدوات التَّمييز، فهو مسؤول عن موقفه مِن الهداية، وفيه كذلك إظهارٌ لعناية اللّٰه بالإنسان؛ فبعد أنْ منحه وسيلتَي الإدراك: (السَّمع والبصر) امتنَّ سبحانه عليه بنعمة الهداية.

الغرض مِن التَّوكيد، وتقديم المسند إليه على خبره الجملة الفعليَّة في ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾:

توكيد الهداية، وتقديم الرِّعاية، إبـــرازًا لعظيم العناية

جاء التَّوكيد بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ لمواجهة إنكار المشركين الذين يزعمون أنَّ ما يدعوهم إليه القرآن باطل[4]، والذين ينكرون أصلًا أنَّ اللّٰه تعالى قد هداهم سُبُلَهم!،

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 215.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 169.
(3) المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.

كما أنَّه مُشعِرٌ بعظيم شأنِ هذه الهداية التي يتفضَّل المولى ﷻ بها على الإنسان.

وقدِّم المسند إليه على خبره الفعليّ للقصر، فالفعل ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ مسند إلى الضَّمير المتَّصل بالنّاسخ ﴿إِنَّا﴾، ثمَّ إنَّ هذا الفعل نفسه مسند إلى ضميره المتَّصل به، وهو (نا) الفاعلين في ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ وهذا الضَّمير يعود أيضًا على المسند إليه، فلمّا تكرَّر هذا الإسناد كان بمنزلة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[1] وهذه الصِّياغة تجري في السِّياقات التي يُطلَب فيها التَّوكيد لمواجهة الشَّكّ والإنكار لدى المخاطَب ودحض ما يدَّعيه مِن شبهات[2].

دلالة التَّعبير بالماضي، والغرض مِن إسناده إلى الضَّمير الدّالّ على التَّعظيم:

جيء بالماضي في قوله تعال: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾؛ لإفادة تحقُّق الوقوع؛ فالهداية مِن الله تعالى لخلقه قد تحقَّقت وتمَّت، فهي ليست أمرًا مؤجَّلًا أو محتملًا، بل إنَّ هذا يشير إلى أنَّ هذه الهداية لم تنفكَّ عن الإنسان منذ خُلِق، ومِن ثمَّ لم يكن غريبًا أنَّ أوَّل إنسان خلقه الله تعالى بيده - وهو آدم عليه السلام - كان نبيًّا معلَّمًا مكلَّمًا، ولم يجعل الله سبحانه جيلًا مِن النّاس أو قرية مِن القرى إلّا بعث في أُمِّها رسولًا بشيرًا ونذيرًا، ومِن ثمَّ أقيمت الحُجَّة على كلِّ إنسان.

هدايةٌ عظيمةٌ تحقَّقت ووَقَعَتْ، ومِن لدن حكيمٍ خبيرٍ نَزَلَتْ

وأُسنِد الفعلُ إلى الضَّمير الدّالّ على التَّعظيم؛ للتَّنبيه إلى مكانة هذه الهداية المتفضَّل بها على الإنسان وعظَمتها، وبيان مدى حاجته إليها؛ فبدون هداية الله تعالى لا تحصل الهداية أبدًا، والمعنى: "إنّا بفضلنا وإحساننا قد أرشدنا الإنسان إلى ما يوصله إلى طريق الحقِّ والصَّواب، وأرشدناه إلى ما يسعده، عن طريق إرسال

(1) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) محمَّد أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 220.

الرُّسل وتزويده بالعقل المستعدِّ للتَّفكُّر والتَّدبُّر في آياتنا الدّالَّة على وحدانيَّتنا وقُدرتنا"[1].

معنى اللّام ودلالتها في المفعول به ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

سبيل الله كالشّمس في الضّياء؛ لا يخفى على الألبّاء

اللّام في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ يجوز أن تكون للعهد، فيكون المراد بالسَّبيلِ سبيلَ الهُدى؛ لأنَّها هي الطَّريقة المعروفة المستحقَّة لهذا الاسم على الإطلاق، فأمّا سبيل الضَّلالة فإنّما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: 67]، وإنَّما أضلّوهم سبيلَ الهُدى، ومَن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله: ﴿هَدَيۡنَٰهُ﴾؛ أي: أرشدناه، وإذا أُرشِد لسبيل الحقّ، فقد نبَّه على تجنُّب ما سواها، فكان اللَّفظ دليلًا على الطَّريقين مِن هذا الوجه[2] ويجوز أن تكون للجنس، فيكون المعنى: هَدَى المؤمنَ لإيمانه والكافرَ لكفره[3].

سرُّ التَّعبير بالحالين وبيان صاحبهما ﴿شَاكِرًا﴾ - ﴿كَفُورًا﴾:

حالان بعد الامتنان، إمّا شُكرٌ وإمّا عصيان

جاء التَّعبير بالحالين ﴿شَاكِرًا﴾ - ﴿كَفُورًا﴾؛ إظهارًا لنتيجة الهداية، وتنوُّع الاستجابة؛ فإمّا أن يشكر نعمة الهداية ويتَّبعها، أو أن يكفر بها ويُعرض عنها[4]، وقد جاء في الحديث أنَّ الرَّسول ﷺ قال: "كلُّ النّاس يغدو فبائعٌ نفسَه فموبِقُها أو مُعتِقُها"[5].

صاحب الحال هو الضَّمير في قوله: ﴿هَدَيۡنَٰهُ﴾؛ أي: إنّا هديناه السَّبيل، حال كونه إمّا شاكرًا وإمّا كفورًا؛ فالحالان عائدان على الإنسان، وهما يصِفان حالَه بعد الهداية[6]. ويجوز أن يكونا حالَين مِن السَّبيل؛ أي: عرَّفناه السَّبيل إمّا سبيلًا شاكرًا، وإمّا سبيلًا

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 215.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 739، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375.
(3) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 409، والنَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 134.
(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 269، وابن جزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 436، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 742.
(5) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطَّهارة، باب فضل الوضوء، عن أبي مالك الأشعريّ برقم: (223).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 537، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 444، وابن الأحنف اليمنيُّ، البستان في إعراب القرآن: 4/ 196.

كفورًا؛ كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: 10]، وعليه يكون وصف السَّبيل بالشُّكر والكُفر مجازًا على وصف السَّبيل بوصف سالكه[1].

دلالة التَّعبير بحرف التَّفصيل أو التَّقسيم: ﴿إِمَّا﴾ و﴿وَإِمَّا﴾:

(إمّا) للتَّفصيل باعتبار تعدُّد الأحوال مع اتِّحاد الذّات؛ أي: هديناه ودَلَلْناه على ما يوصل إلى البُغية في حالتيْه جميعًا مِن الشُّكر والكُفر، أو للتَّقسيم للمهديّ باختلاف الذَّوات والصِّفات؛ أي: هديناه السَّبيل مقسومًا إليها: بعضُهم شاكرٌ بالاهتداء للحقّ وطريقه بالأخذ فيه، وبعضهم كفورٌ بالإعراض عنه، وحاصله: دَلَلْناه على الهداية والإسلام، فمنهم مُهتَدٍ مُسْلِمٌ، ومنهم ضالٌّ كافر[2].

بين شكرٍ وجحود يتبيَّن السَّعيد مِن الشَّقيّ المردود

دلالة تقديم ﴿شَاكِرًا﴾ على ﴿كَفُورًا﴾:

قدِّم الشُّكر على الكفران في قوله تعالى ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ لأنَّ الشُّكر هو الأصل الذي ينبغي أن يترتَّب على تلكم الهداية الآتية مِن الله سبحانه ولأنَّ أسلوب الآية قائم على التَّرغيب بالتَّذكير بالنِّعم المتفضَّل بها على الإنسان، ثمَّ بالتَّرهيب، فبُدِئ بالوجه الحسن.

الشُّكر على النِّعم أصلٌ تجنح إليه النُّفوس السَّليمة، والفطرة القويمة

الغرض مِن التَّعبير بأسلوب التَّرديد: ﴿إِمَّا﴾:: ﴿وَإِمَّا﴾:

جاء التَّعبير بأسلوب التَّرديد ﴿إِمَّا﴾... ﴿وَإِمَّا﴾؛ لإبراز أنَّ الإنسان لا يخرج عن هذيْن الحالَيْن، فلا موقف ثالث له، وهذا يعطي طابعًا حاسمًا، فإمّا أن يكون مع الهداية أو ضدَّها، وهي مقارَنة عرفيَّة؛ أي: عقب التَّبليغ والتَّأمُّل، فإنْ أخذ بالهُدى كان شاكرًا وإنْ أعرض كان كفورًا كمَن لم يأخذ بإرشاد مَن يهديه الطَّريق فيأخذ في طريقٍ يلقَى به السِّباع أو اللُّصوص، وبذلك تمَّ التَّمثيل الذي في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[3].

أسلوب التَّرديد لبيان الابتلاء، وإظهار الحسم الشَّديد

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 666، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 742، والسّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 594.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 537، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 269، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 169.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 375، والمظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 147.

سرُّ المخالفة في الصِّيغة بين اسم الفاعل: ﴿شَاكِرًا﴾، وصيغة المبالَغة: ﴿كَفُورًا﴾:

يـكـثر وقـوع الكفران مِن بني الإنسان

أوثِر التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ للدِّلالة على قلّته، وجاءت ﴿كَفُورًا﴾ صيغة مبالغة؛ لأنَّ مَن يتَّصفون به كُثُر، ويكثر وقوع الكفر مِن الإنسان[1] وقيل: عُبِّر باسم الفاعل في قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ إشارة إلى أنَّه لا يقدر أحدٌ أنْ يشكر جميع النِّعم، فلا يُسمَّى شَكورًا إلّا بتفضُّل مِن ربِّه عليه، ولمّا كان الإنسان لِما له مِن النُّقصان لا ينفكُّ غالبًا عن كُفرٍ ما؛ أتى بصيغة المبالَغة ﴿كَفُورًا﴾؛ تنبيهًا له على ذلك، وإشعارًا بأنَّ الإنسان لا يخلو عن كُفران غالبًا، وإنّما المؤاخَذ به التَّوغل فيه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحين والوقت:

في الحين إطلاقٌ وفـي الـوقـت تحديدٌ

المعنى المحوريُّ لجذر الوقت: تحديدُ زمنٍ معيَّن لإيقاع الشَّيء[3]. والوقت: نهاية الزَّمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلّا مقدَّرًا نحو قولهم: وقَّتُّ كذا: جعلتُ له وقتًا[4].

أمّا الحين فهو في أصل اللُّغة لمطلَق الزَّمان، قليلًا كان أو كثيرًا[5]، وهو وقتٌ مِن الدَّهر مبهَمٌ يصلُح لجميع الأزمان كلِّها، طالت أو قصُرت[6]؛ والإنسانُ لم يكن شيئًا مذكورًا في ذلك الحين؛ فناسبَ ذلك استعمالُ لفظ (الحين) دون (الوقت) لأصل الحين ومعناه المذكورَيْن، وناسب ذلك مجيءُ (الحين) نكرةً.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 360، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 71.
(2) الغزنويُّ، باهر البرهان: 3/ 1599، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 133 - 134، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 269.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقت).
(4) الرّاغب، المفردات: (وقت).
(5) ابن فارس، المقاييس، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (حين).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حين).

الدَّهر والزَّمن:

الزَّمَن يقع على المدَّة القليلة والكثيرة[1]، أمّا الدَّهر فهو في الأصل: اسمٌ لمدَّة العالَم مِن مبدأ وجوده إلى انقضائه[2] فأوثِر (الدَّهرُ) في هذه الآية دون (الزَّمَن)؛ لأنَّ الدَّهرَ متضمِّنٌ هذا (الحين) مهما كانت مُدَّته.

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (زمن).
(2) الرّاغب، المفردات: (دهر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"